الحلقة 15

الفصل الثالث

من أسرار اختلاف الألسنة والألوان وعلاقة اللغة بالرسالة

ومع آية السموات والأرض عجيبة أخرى: اختلاف الألسنة والألوان قال تعالى: ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾(الروم/22). نعم عجيبة اختلاف الألسنة والألوان بين بني الإنسان واختلاف في الأصوات واختلاف في التركيب النفسي والعضوي ما يجعلهما متباينين كثيرا حتى بين أخوين توأمين ولدا في وقت واحد من بطن واحد!! فاختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات، ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكي، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأصل والنشأة في بني الإنسان.

إن اللغات كثيرة جدا حتى قدرها بعضهم بثلاثة آلاف وزادها بعضهم إلى أكثر من ذلك. ولقد تشعبت هذه اللغات حتى يستحيل الآن ردها إلى أصولها التي اشتقت منها وهي اللغة الآرامية والطورانية والإيرانية.

– فاللغة الآرامية نسبة إلى الآراميين وهم جيل من الناس كانوا عائشين جهة مصاب نهري الدجلة والفرات قبل ألوف من السنين وقد اشتقت منها العربية والسريانية والقبطية والحبشية وغيرها[1].

– اللغة الطورانية نسبة إلى طوران في التركستان ومنها اشتقت اللغة التترية والتركية والصينية والجركسية والدانماركية والهنكارية.

– اللغة الإيرانية المنسوبة لهضبة إيران بآسيا ومنها جاءت اللغة الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية وما تفرع منها من لغات أوروبا.

وكانت نتيجة أبحاث اللغويين أن عرفوا أن اللغات تنقسم إلى لغات مرتقية ولغات منحطة. وميزوا الأخيرة بأنها أقل إبانة عن المعاني وأبسط ألفاظا وتركيبا كاللغات الإفريقية والأمريكية التي يتكلم بها شعوب إفريقيا وأمريكا الأصليين، ولغات شمال آسيا، واللغة الصينية ومن اللغات المنحطة عدوا اللغات الحامية نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام، ومنها لغة قدماء المصريين والأحباش الأقدمين والبربرية...

---

[1] انظر "دائرة معارف القرن العشرين " للأستاذ محمد فريد وجدي.

وميزوا اللغات المرتقية بسعة مداها في التعبير عن المعاني وشمولها لألفاظ متعددة على قدر ما يحتاج إليه الإنسان للتعبير عن كل ما يجيش بصدره من المعاني ويجول بخاطره من المدركات.

وقد قسموا هذه اللغات إلى متصرفة وغير متصرفة. فالأولى تمتاز بقبول أصلها للتصريف وتنقسم إلى طائفتين: الآرية أو الهندية الأوروبية واللغات السامية نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام ومنها العربية وهي أرقى اللغات على الإطلاق. وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: الآرامية والعبرانية التي تفرعت عنها اللغة الفينيقية والقرطاجية واللغة العربية وقد كانت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم محصورة في جزيرة العرب. فلما ظهر الإسلام انتشرت فيما بين أواسط الهند وبوغاز جبل طارق وما بين البحر الأسود وبحر العرب، تشهد بذلك حروفها وألفاظها المستعملة في لغات الترك والفرس والهنود وغيرهم... وتتفرع من العربية لغات أخرى كالحبشية.

وبالاستقراء الدقيق اتضح للباحثين أن اللغات السامية ترجع كلها إلى أصل واحد وهو اللغة السامية أو البابلية. والطائفة الآرية ترجع إلى ثلاثة أصول: وهي اللاتينية واليونانية والهندية. فمن اللاتينية تفرعت معظم لغات أوروبا. ومن اليونانية تفرعت لغات اليونان. وأما ما بقي فتنوع من السنسكريتية (الهندية) قالوا وترجع هذه اللغات إلى أصل واحد مفقود ألا وهو اللغة الآرية.

أما اللغات المرتقية غير المتصرفة فتمتاز بكونها مؤلفة من أصول جامدة فيها تقبل التغيير في بنائها وبأن الاشتقاق فيها يقوم بإلحاق أدوات لا معنى لها في ذاتها "كالتركية" مثلا.

❖ أما عن كيفية اختلاف اللغات فقد قال العلماء اللغويون إن اللغات كلها مشتقة من أصل واحد فكيف حدث هذا الاختلاف العظيم بين اللغات؟ قيل إن الإنسان الأول نشأ بين العراق وأرمينيا فلما كثر نسله تفرقوا في الأرض طلبا للعيش فتخالفت لغاتهم وأدخل كل منهم إلى لهجته ألفاظ جديدة على حسب الحاجة فاشتد الخلاف بينهم على مر الأيام.

قالوا: والظاهر أن أهل اللغات المنحطة كانوا أقدم من رحل عن موطن الإنسان كالصينيين والمصريين الأقدمين. ثم هاجر أجداد الأمم التي تتكلم اللغة الطورانية فسكنوا بشمال آسيا ومنهم المغوليون والتتار وغيرهم. ثم نزح الآريون فتوزعوا في جهات الهند وفارس وكردستان وأوروبا. ثم هاجر الساميون تلك الأرض أيضا فكانت كل طائفة من المهاجرين ترتقي بلغاتها في طريق غير طريق الطائفة الأخرى فتفاوتت اللغات تفاوتا ذريعا حتى يظهر للناظر فيها لأول وهلة أنها لغات مستقلة.

وكان كلما قرب زمن انفصال الطوائف بعضها عن بعض زادت لغاتها تفاوتا وتبيانا وكلما قرب زمن انفصالها حفظت تلك اللغات نوعا من المشابهة. مثال ذلك تجد الفرق بين اليونانية واللاتينية أكثر مما هو بين اللاتينية والفرنسية أو بينها وبين الإيطالية وغيرها من اللغات الأوروبية. والسبب في ذلك أن عهد انفصال اللاتينية عن

اليونانية أبعد من عهد انفصال الفرنسية والإيطالية عن اللاتينية. ولا تنسى أن النمو في كل لغة يحدث في طريق وعلى أسلوب مخالف كل المخالفة للطريق والأسلوب اللذين تنمو عليهما غيرهما.

أما ما يتعلق باختلاف الألوان فقد ذكر الإمام ابن الأثير في كتابه[2] عند ذكر ذرية نوح عليه السلام قائلا: " قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى:﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾(الصافات/77). إنهم سام وحام ويافث". وأما الرابع فقد أصبح من المغرقين مع قوم نوح، في واقعة الطوفان المشهورة وقال وهب بن منبه: إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حاما أبو السودان وإن يافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج. وقيل إن القبط من ولد قوط بن حام وإنما كان السواد في نسل حام لان نوحا عليه السلام نام فانكشفت سوأته فرآها حام فلم يغطها ورآها سام ويافث فألقيا عليه ثوبا. فلما استيقظ علم ما صنع حام وإخوته فدعا عليهم. وصارت بقية ولد حام بالسواحل من النوبة والحبشة والزنج والله أعلم.

وآية خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها إلا العالمون... فهناك من يدرسون هذه الظاهرة العجيبة دراسة موضوعية ولكنهم لا يقفون وقفة تمجيد أمام الخالق المدبر للظواهر والبواطن، ذلك أن أكثر الناس لا يعلمون.

---

[2] "الكامل في التاريخ" للإمام ابن الأثير.